

## سيرة الأستاذ جوذر

تصنيف أبي علي منصور العزيزي الجوذري

تقديم وتحقيق الدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة  
( دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٥ )

المكتبة العربية ترحب بهذا النص التاريخي الخاص بالدولة الفاطمية وأيامها في تونس ، ولأبي علي الجوذري مصنف هذا الكتاب وأمين الأستاذ جوذر ، شكر المعنيين بالمراجع الأصلية للتاريخ الفاطمي في هذا الدور التونسي . وللدكتورين محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة شكر الباحثين في مطويات هذا التاريخ ، بما قاما عليه من نشر هذا الكتاب نشرًا علميًا جيدًا من نسختين مخطوطتين ، مع تقديمه بمقدمة تعريفية ، وتحشيته بتعليقات توضيحية ، فضلًا عن فهرس أبجدي عام يستطيع القارئ الاستعانة به عند الحاجة العابرة ، مع العلم بأن القيمة الدفينة في هذا الكتاب لا تظهر إلا بعد قراءته كله في إمعان .

وعنوان الكتاب لا يتم في الواقع عن محتوياته النادر وجودها في غيره ، إذ ليست هذه المحتويات سيرة رجل شهد الدولة الفاطمية منذ أيام نشأتها الأولى على يد عبيد الله المهدي إلى أيام انتقالها إلى مصر أيام المعز ، بل هي سلسلة من الرسائل التي تبادلها الخلفاء الفاطميون والأستاذ جوذر في بعض مسائل الحكومة الداخلية والقصر والأسطول وشئون السياسة الخارجية . وتستطيع هذه المحتويات تجاوزًا أن تسمى سيرة ، من حيث أن المصنف أبي علي الجوذري رتبها ترتيبًا تاريخيًا لتنبئ هي عن شخصية أستاذ فاطمي وأخلاقه ومكانته ، دون أن يعلق عليها أو يشرح أسباب كتابتها إلا بقدر ضئيل ، متوخياً في ذلك فيما يبدو شيئاً من الموضوعية اللبقة اللازمة لأمين حين يدون أخبار مخدمه عن طريق الرسائل الوثائقية الخاصة التي وصلت إليها يده .

والأستاذ جوذر صقلبي الأصل من أواسط أوروبا ، جاء إلى تونس عن طريق الرق الأوربي الأبيض الذي اتجر فيه يهود العصور الوسطى مع أرباب الدول الإسلامية الغنية بشمال أفريقية ومصر والشام . واتفق مجيء جوذر إلى تونس والدعوة الفاطمية في أول أمرها ، ودولة الأغالبة في أواخر أيامها ، على مسرح التاريخ . وسواء كان جوذر من ممالك الأغالبة المتأخرين ، أم أنه من مشتريات عبيد الله المهدي الفاطمي ، فالمعروف أن عبيد الله ترسم فيه نجابة وفطانة ، فلم يلبث أن عينه مؤدباً لابنه أبي القاسم ، ووهبه له ( ص ٣٥ - ٣٦ ) . ولم يكن جوذر صقلبياً وحيداً بين عبيد الفاطميين ، إذ المعروف أن الفاطميين استجلبوا كثيراً من الصقالبة ، الذين ما لبثوا أن عتقوا وصاروا يملأون وظائف الدولة الفاطمية . ومنهم جوهر الكاتب الملتصق اسمه بفتح مصر ، وسرور ، وصافي ، شفيع ، وريان ، وقيصر ، وأفلح ، وكلهم معروف بنسبته إلى أصله الصقلبي .

وظل جوذر على وظيفته المسئولة مدة طويلة تأدب فيها عليه أولياء العهد في الدولة الفاطمية ، من أبي القاسم حتى المعز . وصار كل من أولئك خليفة ، وحفظ كل منهم لجوذر مكانته عنده ، فبقي قريباً من أخبار البلاط الفاطمي قريباً جعله قادراً على أن يقف من أهل القصور الفاطمية وحرم الخلفاء الفاطميين موقف الأستاذ المؤدب المسموع الكلمة ( ص ٩ - ١٠ من المقدمة ) . وتولى جوذر فضلاً عن هذه الأستاذية الكبيرة عدة وظائف ديوانية كبيرة كذلك ، حتى صار مثابة الوزير الأكبر في الدولة الفاطمية الناشئة ؛ ومن هذا وذاك تتضح قيمة الوثائق الواردة في هذا الكتاب الصغير ، ويستطيع القارئ بين سطور هذه الوثائق أن يهتدى إلى بعض أركان السياسة الفاطمية ووسائلها ، وأن يتعرف على بضع نواح مجهولة في شخصيات الخلفاء الفاطميين الأولين ( انظر مثلاً خطبة الخليفة المنصور بإعلان وفاة أبيه القائم ص ٥٥ - ٦٠ ) .

على أن الأهمية الكبرى لهذا الكتاب تتركز فيما يستدل منه على شخصية المعز الذي تم على يديه فتح مصر ( ص ٧٢ ، وما بعدها ) ، ولأسيما ما ورد في بعض الرسائل المتبادلة بين الخليفة وأستاذه من إشارات إلى أحلام بعيدة رامية

إلى التوسع الفاطمي بعد مصر إلى مكة وبغداد ( ص ١١١ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ) .  
غير أن جوذر لم يعش ليرى بعينه شيئاً من محاولات تحقيق هذه الأحلام  
الإمبراطورية ، بل إنه لم ير مصر بعد فتحها ، إذ رافق ركب الخليفة المعز نحو مصر ،  
وفي عزمه فيما يبدو أن يستقر بالعاصمة الفاطمية الجديدة ، أي القاهرة ،  
ولكنه توفي في الطريق ببرقة سنة ٩٦٩ م ( ص ١٤٣ - ١٤٨ ) . غير أن الذي  
يدعو إلى الالتفات هنا أن اسم جوذر وصل إلى القاهرة ، دون أن يصل هنز  
إليها جسماً حتى بعد وفاته ، بل إن اسمه لا يزال باقياً بها حتى العصر الحاضر  
في حي وشارع وحارة وعطفة تحمل كلها اسم الجودرية ( بالدال ، نسبة إلى  
جوذر بعد شيء من تمصير النطق ) وهي أمكنة تموج بالتجارة القاهرية الراجحة  
منذ العصور الوسطى . هل معنى هذا أن الأستاذ نقل أمواله إلى القاهرة وأنه  
اعتزم الإقامة بها على مقربة من طلعة الخليفة المعز ، برغم ما شاع وقتذاك من  
تقرير الخليفة تعيينه نائباً عنه بالمغرب ؟ أم هل معناه أن أتباع جوذر انتقلوا بعد  
وفاته إلى القاهرة ، وصار لهم شأن في حياتها الاقتصادية أو السياسية أو الدينية ،  
بحيث أصبح لهم حي وعقار وأملاك ثابتة في جزء من أهم أجزاء القاهرة  
الفاطمية ؟ أم هل معناه أن الأستاذ خلف أسرة عاشت وغنيت فروعها بالقاهرة ؟

ومن الحديد في هذا الكتاب إشارات إلى اشتغال بعض أولياء العهد في  
الدولة الفاطمية بالتجارة الخاصة ، واشتغال جوذر وغيره بالأعمال التجارية ،  
بالإضافة إلى توليته وظائف الحكم بين الناس ( ٦٢ ، ٦٩ ) ، وهي إشارات  
توجد أمثالها في عصور سابقة ولاحقة ، وهي في مجموعها أصل لما كتبه  
ابن خلدون في الأضرار والمفاسد التي تلحق بالمجتمع من اشتغال أرباب الدولة  
بالببيع والشراء والكسب التجاري ( انظر مقدمة ابن خلدون - بولاق - ص  
٢٣٤ - ٢٣٦ ) . ومن الحديد في هذا الكتاب كذلك نهى الناس ومنعهم من  
إطلاق البكاء والنوح في الوفيات ( ص ٤٣ ، ١٠٠ ) ، واعتبار سلمان الفارسي  
من الأئمة الفاطميين ( ص ٦٥ ) ، وتفاصيل بعض الطريق من المهديّة إلى  
القاهرة ( ص ١٤٣ ) ، وهذا فضلاً عن صنيف زاخر من الألفاظ الاصطلاحية  
التي تستطيع أن تملأ فراغاً في معجم المفردات اللازمة للبحوث التاريخية الحديثة ،

ومثال ذلك من الألفاظ المعتصمين ص ٤٣ ، خفيفة سفريّة ص ٤٧ ، دنانير  
رباعية ص ٦٠ ، المرصدين ص ٧٠ ، التمريث ص ٨٩ ، السكاك ص ٩١ ،  
الفرانقين ص ٩٩ ، الزانات ص ١١٣ ، العدوات ص ١١٤ ، وغيرها . وللناشرين  
شكر ثانٍ للعناية بشرح معظم هذه الألفاظ في قائمة التعليقات في آخر الكتاب .

محمد مصطفى زياده